University of Thi-Qar Journal of Humanties Science
Website: jedh.utq.edu.iq Email: utjedh@utq.edu.iq

سلطة المكان واثرها في حركية الصراع في روايات جاسم عاصي

The power of the place and its effect on the movement of the conflict in the novels of Jasim Asi

أ. م. د. أحمد حيال جهاد زهراء كريم حسن
Dr. Ahmed Heyal Jahad
Zarhaa Karim Hassan
Ahmedheyal70@gmail.com
zraa3741@gmail.com

Abstrac:

The place is governed by the total relationships between people, it has an effective effect on the emergence of conflict among personalities, whether this conflict is of a subjective character; The decay of the existential value of the human present, social or political, especially since the relationship between personality and place is a reciprocal relationship in which each party is influential and affected. This is embodied in (the novels of Jasem Asi), as the place rules its authority over them. Forming different types of conflict.

Key word :Opening words: Bathed dead, The house, Conflict, the place

الكلمات الافتتاحية : المكان, الصراع, المغتسل, البيت , المضيف

ملخص:

إن المكان محكوم بجملة العلاقات بين الأشخاص, فله الأثر الفاعل في نشأة الصراع عند الشخصيات, سواء أكان هذا الصراع ذو خاصية ذاتية أم اجتماعية أم سياسية؛ لاضمحلال القيمة الوجودية لحاضر الإنسان, ولا سيما أن العلاقة بين الشخصية والمكان هي علاقة تبادلية يكون كل طرف فيها مؤثرا ومتأثرا. وهذا ما تجسد في (روايات جاسم عاصي), إذ يحكم المكان سلطته عليهم مشكلاً بذلك أنماطا مختلفة من الصراع.

المقدمة

يعدُّ المكان عنصراً له أهمية في النصوص الروائية, فلا يمكن الولوج إلى عالم الرواية إلَّا عن طريقه, فهو الركيزة التي يرتكز عليها الكاتب التي تشد أجزاء العمل الأدبي كله. فهو "لا يعيش منعزلاً عن باقي عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد كالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية.. وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد"[1] فهو الحلقة الرابطة للعناصر الحكائية من حوادث وشخصيات.

ويعدُّ "من أهم المحاور الروائية المؤثرة في إبراز فكرة الكاتب, وتحليل شخصياته النفسية لأن إدراك الإنسان للمكان مباشر وحسي, وصراعه معه ما هو إلا تأكيد لذاته, وتأصيل لهويته, فبقدر إحساس الإنسان بالمكان, تكمن أهمية وجوده, ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا إن المكان يضيق بحياة الإنسان مثل الزمان تماماً, لأن وجوده في المكان يستمر معه طوال عمره, فلا تكتسب الذات أهميتها إلَّا من خلال تفاعلها مع المكان الموجودة فيه"[2].

فهو ليس طارئاً في حياة الإنسان, وإنما هو متغلغل فيه, مشكلاً وعيه, فهو البيت, والأرض, والأم, والوطن, والطفولة, والذكريات, فما بين المكان والذاكرة علاقة "إقامة متبادلة: يقيم المكان في الذاكرة وتقيم الذاكرة في المكان, الإقامة بين الذاكرة والمكان هاجس تضافر والتحام أكثر منه فعل مشاركة بين طرفين تقارب بينهما لحظة زمنية"[3], فهو ليس مجرد أرض سهلة أو صلبة أو فضاء مغلق أو مفتوح بل هو ذاكرة في أرقى تجلياتها الفكرية, والروحية, والفنية, والجمالية, من الصعوبة الانسلاخ عنه, فلم يكن حيزا جغرافيا فحسب, بل هو حيز إنساني مليء بالإسقاطات النفسية عند الروائي, محمل بمحمولات ثقافية ونفسية

وابداعية يتجاوز بذلك حصر المكان بالجانب التصويري جاعلا منه عنصرا عضويا متفاعلا مع أحاسيس الروائي وتخيلاته. ف "المكان في الأدب ليس مجالا هندسيا تضبط حدوده أبعاد وقياسات خاضعة لحسابات دقيقة كما هو الشأن بالنسبة إلى الأمكنة الجغرافية ذات المواصفات الطبوغرافية إنما يتشكل في التجربة الإبداعية واستجابة لما عاشه وعايشه الأديب إن على مستوى اللحظة الآنية ماثلا بتفاصيله ومعالمه, أو على مستوى التخيل وافدا بملامحه وظلاله"[4].

فهو إذن ناتج عن الخيال وإن كان يطابق الواقع. ويرتبط المكان بالقيمية ومن ثَمَّ يصبح التقابل بين القيم من خلال التقابل بالأمكنة فهناك صفة طوبولوجية هي التي تحدد القيمية, فهو مرآة عاكسة للشخصية القاطنة فيه, فالقصر العالي دلالة للغنى وعلى العكس منه البيت الصغير الضيق فهو دلالة لضيق الحال المادي.

وعلى هذا الأساس فعن طريق وصف المكان نتعرف على الشخصية انطلاقا من مبدأ علاقة الساكن بالمسكن[5], فهو "يحمل جزءاً من أخلاقية وأفكار ووعي ساكنيه"[6], فعلاقة الشخصية بالمكان تبدأ من لحظة الميلاد, وتنمو مع نموه وتتفاعل بدورها مع المكان وتندمج معه, فالإنسان بصفة عامة شخصية مكانية, لا يوجد منفصلاً عن المكان وبذلك تصبح فاعليات المكان سمات تدخل في التكوين الجمعي للمتعايشين فيه, وتمتد هذه العلاقة لما بعد موت الانسان,[7] فللمكان ميزة في التكوين الأيديولوجي للشخصية, وهو يستمد دلالته "من تعامل الشخصيات معه فهو لا يحمل قيمة ذاتية خارجية بل قيمته النصية تؤسسها علاقة الشخصيات به لأن الإنسان هو الذي يسقط عليه دلالته التي يعبر بها من الوجود الجغرافي والهندسي الجاف والأجوف إلى الوجود المكثف والثري بالمداليل والمعاني"[8].

إذن العلاقة بين الشخصية والمكان هي علاقة تبادلية ويكون كل طرف فيها مؤثرا ومتأثرا. وقد يميل بعض النقاد إلى الرأي القائل بالتطابق بين الشخصية والمكان وجعل الأخير امتدادا للأول, أي إذا وصفت المكان فقد وصفت قاطنه, فهو لا يظهر –حسب رأيهم– إلَّا من خلال رؤية الشخصية القاطنة فيه فمن خلال هذه الرؤية تتحدد دلالته[9].

وبما أن المكان ملتصق بالشخصية فهو يمارس سلطته عليها وله تأثير على الشخصية الروائية ودفعها إلى الفعل, ومن ثَمَّ يتبين لنا مدى التصاق الشخصية به, ومدى قدرته في التحكم

بسلوكيات الأشخاص القاطنين به وصقل طباعهم, ولعل من أبسط أمثلة ذلك, ما يعيشه الفرد من حالات شعورية حين يغادر المكان, سواء أكانت علاقته إيجابية أم سلبية, ففي الحالة الأولى يكشف عن حالة الحزن والحنين إلى ربوعه, أمّا العلاقة الثانية فتكشف عن بهجة النفس وانشراحها لمغادرة المكان, وربما يعود ذلك إلى ما لاقته الشخصية من معاناة وحرمان. "إنّ الحالة النفسية وتطورها لدى الشخصية تجعلها ترى المكان الواحد بأكثر من رؤية تبعا لتطور المزاج النفسي والمكون الفكري"[10].

ومن هذا المنطلق نعرف أن المكان يتغير بتغير الأشخاص, والموضوعات, والأفعال, فهو ليس أطارا جامدا وظيفته احتواء الفعل فحسب بل له خصائص ومميزات هي النوع, والحالة, والغرض, والعلاقة بينه وبين الأشخاص[11].

يحتل المكان أهمية مميزة في بناء الصراع بانماطه المتنوعة في المتواليات السردية لجاسم عاصي, فيدخل مع الصراع في علاقة جوهرية متبادلة, فالمكان في رواياته (الواقعي/ الخيالي) يسهم في بناء الحالات الشعورية التي تطرأ على الشخصية, فهو عنده ليس مجرد عنصر من عناصر البناء الفني للمتواليات بل هو العمود الفقري الذي يربط الشخصية بالصراع.

النفق:

ففي رواية (المكعبات الحجرية) نجد النفق, وهو مكان يشعر فيه البطل (سعيد الناصريّ) بالعزلة والوحدة, فهو عنده يقف بالضد من آماله, فهو مرتبط عنده بالمقت والنأي بالروح والجسد عن التفاعل مع الآخرين, فالعزلة فيه ليست مكانية فحسب بل هي عزلة (مكانية/روحية), ومن الجدير بالذكر إن أحداث الرواية قُدمت "بصورة مغايرة, إذ تبدأ بآخر الأنفاق, أي اشتغلت خارج دائرة الزمان المتعارف عليه بالترتيب, أي بعد انتهاء الأزمات, فكان الراوي هو الشاهد الوحيد الذي أعطانا ملامح الأحداث بعد أن أنهكه اليأس القاتل"[12] "إذ استمرأت الدخول إلى الأخدود الذي لا يشكل سوى ضيق وطئ كالأسطوانة المشطورة عرضا إلى نصفين, تحيطهما المكعبات الحجرية الصلبة ذات الطلاء الابيض المشوب بتفاوت درجات ترسب الغبار عليها"[13].

يبدو أن الخيبة الكبيرة التي تركها البلد في نفس الناصري كانت إحدى الأسباب التي جعلته يشعر بالمقت اتجاه النفق الذي شاهده في بلد الغربة الذي ذهب إليه مضطراً هروباً من الموت, إذ كان الناصري يلفي نفسه وحيدا في أعقاب عودته من الأسر, إذ صارت عزلته عن المجتمع شاسعة وهي التي دفعته إلى هجر بلده, أثارت رؤيته للنفق مشاعره الدفينة فيستذكر الأنفاق التي مر بها "إني ادخل لعبة المتاهة والتيه والضياع. نفق المطبق.. نفق الحدادة.. نفق الرطب.. نفق الامتار المعدودة. كلها تؤدي إلى موت مؤجل" [14].

إن هذا النفق الذي دخله في الغربة لم يكن عاديا وإنما حرَّك فيه ذكريات أهون صفاتها (مهلكة), فنلمس أثر المكان وفاعليته في الشخصية, فأخذ يعدد الأنفاق التي مرَّ بها والتي تشكَّلت في ذهنه كمتاهة, يعد النفق من الأماكن الطاردة لسعيد الناصري؛ لأنه مرتبط عنده بذكرى الموت حيث السجن والأسر والغربة, فهو يراه مكاناً معادياً "طاردتني الأسئلة المرة والمريرة, ولم تزرني غير خيالاتي التي دفعتني للبحث عن نفق ما يخلصني من وحشتي".

إنّ ذات الناصري المعزولة عن بقية الذوات, الذات المكتنزة بالأسئلة الفكرية, تبحث عن نفسها في داخل الأنفاق, فهو يسعى إلى إيصال تجاربه مع الأنفاق طوال حياته عبر منظار الاسترجاع, فتماهت الذكريات والحكايات بين الأمس واليوم والمستقبل. فهو الباحث عن الذكريات يلوذ بها وبخيالاته لعله يتخلص من ضيق النفق.

" كان ثمة رجل يتكئ على وهم الجدار. كلما مررت به أزداد ارتعاشا وحشرجة, ما أن يحس باقتراب وقع الأقدام وتطأ الأرض الصلبة, ذاهبة وآيبة نحوه. إذ تجتازه على عجالة, غدت بمثابة منبه لزيادة الاهتزاز"[15]

يسرد الناصري عبر الذاكرة حكاية رجل مرتجف قابله في أحد الانفاق. وهذا النوع من السرد "لا ينتظم وفق نسق عمودي, بل يكون الزمن فيه كنص غير ثابت, فهو ينساب وفق استرجاع الشخصية الروائية للأحداث"[16], ولعل هذا الاسترجاع جاء نتيجة الغربة الروحية التي يشعر بها الناصري عند عبوره النفق في بلاد الغربة يوميا فرؤيته للنفق تحرك في دواخله أزمات نفسية, فيبدأ بسرد الحوار في الذاكرة.

"بسبب دخولك إلى الوهم.

– تقصد النفق؟

- نعم النفق الذي يحتوينا
- كنت اروم اجتيازه إلى الجهة الاخرى
- لا خلاص.. أينما حللت ثمة أنفاق وبرد
- إنها أنفاق تستقبلنا ما ان نغادر رحم الام الاول
- وكيف كانت فرصتك معها..؟ كيف تخلصت من انفاقك.؟ على الرغم من اني لا اعتقد أن المرء يمكنه التخلص من نفقه. إني استغرب من كل ما تقوله"[17]

كان الراوي يحاول إخراج الشخصية المرتجفة من حالته هذه ومن النفق العالق به إلَّا أنه توصل إلى محالية القيام بهذا الأمر لكونه – الشخصية المرتجفة– مقتنعا بأن الحياة عبارة عن أنفاق لا يمكن الخلاص منها مهما قدَّم من جهد, فكان هذا الاستذكار المحرك لذكريات أخر, مرتبطة جمعها بأنفاق مر بها. وأقسى هذه الأنفاق هو نفق الرطب كما أطلق عليه أو نفق قطار الموت. يعد القطار مكانا حركيا بمسار أفقي متكرر, ومحدد من عتبة الشروع إلى عتبة الوصول الغاية, وتشوبه العلاقات العابرة والصداقات الهشة, وهو وسيلة نقل بطيئة تتمدد فيه وحدات الزمن الطبيعي, ويتضخم به الزمن النفسي, الذي يفرض التواصل عن طريق الحكي الذي يتجلى بوضوح في السفر, الذي تنكشف فيه حميمية مجتمع المسافرين ورغبتهم في البوح الممنوع في الأماكن المفتوحة[18] "وجدتني مع صحبي ودونهم أحيانا, كنا ننحشر مع بعض وسط مخازن ساخنة. وحين تطلعت إلى الخارج عبر الشق, لم أر شيئا سوى خلاء ممتد, خلته متاهة قائمة ومهيأة لالتهامنا. سألت الآخرين وهم يتطلعون معي من خلال ثقوبهم داخل مكعبات المكان. صار النظر إلى العالم عبر ثقب ضيّق..! لم يذكروا ما يفيد سؤال, فقط إن عيونهم لم تعثر على أثر لشيء. فهم في متاهة مثلي. بدونا اشبه بالسردين داخل علبة كبيرة, خاصة حين ترطبت ملابسنا بفعل الحر وضيق النفس" [19]

إنَّ (القطار/ النفق الرطب) يعد مكان انتقال من منطقة إلى أخرى فضلاً عن كونه يشهد حركة الشخصية والإطار الحاوي للأحداث. فالوصف الذي قدمه به الراوي يوحي بالزمن المتأزم, ومن ثَمَّ أدى إلى تأزم نفسية من كان داخل قطار الموت, فيصفهم بأنهم أصبحوا أشبه ما

يكون بالسردين داخل علبة كبيرة تحيطهم وتنطبق عليهم شيئاً فشيئاً, وعلى هذا يكون المكان(النفق/ القطار) وسيلة الراوي وحامل الرسالة إلى المتلقي, فهو بالنسبة إليه قناع "شكلي, يحدد له موقفه من رؤية الحياة, وكذلك موقفه في إعلان هذه الحياة"[20], فالراوي هنا قد أشرك جميع المحسوسات في وصف الصورة المكانية.

"كيف نُقاد هكذا كالشياه نحو المذابح ولا ذبح هناك يقطع طريق الألم أمامنا. الزمن يجري ونحن نذوب داخل علبتنا. إلى أي الاماكن سوف يذهبون بنا إليها, .. بل اغلقوا علينا كل منفذ كما أطبقوا المكان علينا. من محرقة بشرية إلى مجهول مظلم"[21]

في هذا المقطع السردي يتضح لنا المصير السوداوي الذي كشفه لنا الوصف, مما ولَّد نفسية متأزمة تعاني من صراع من أجل التمسك بفسحة أمل, وقد أسهم وصف الراوي للمكان (القطار) "نحن نذوب داخل علبتنا" في تبيان انقباض نفسيته في ظل هذا الوضع المتأزم, فمجيؤه بهذا الوصف ما هو إلا ارتداد لمعاناة الشخصية إثر التواجد في مكان يضيق بهم ويحاصرهم ليحولهم إلى فضاء مجهول, وقد جاء النص محملا بعبارات وصفية تؤكد لنا ما عاشته الشخصيات من صراع نفسي شديد "في منتصف الليل اقتادونا على عجالة من أمرهم, صارمي الوجوه بدوا قساة, لم يتركوا لنا فرصة جمع عفشنا وحاجاتنا, بل ساقونا كالخراف معصوبي العيون, ذاهلين من غموض رحلتنا وأسبابها, راحوا بعد فترة يحشروننا داخل جوف غامض صلب الجدران. يدفعون من في الداخل وهم بدورهم يتراصون على الصفوف التي سبقتهم. كان اللحم البشري يندمج مع بعضه. ويغدو كتله واحدة"[22]

يسرد لنا هذا المشهد الاستذكاري حكاية مستمدة من واقع الشخصية ومعاناتها ويتجاوز الواقع من خلال إضفاء ظلال على قشرة الواقع الفعلي, فيسبر الأبعاد النفسية للشخصية, ونلحظ الصراع النفسي الذي سببه المكان, فالراوي يضفي على نفسه ومن معه صفات تدل على الغربة الداخلية وإنعدام الإدراك الحسي لديهم للموجودات مما أصَّل لديهم هذا الصراع, فجل ما يتمونه أن يلفظهم القطار, ولعل شدة الصراع وتأثير ذلك في نفس الراوي جعله يصف المكان بوصف تقريري, وهذا الوصف صادر عن إنفعال الشخصية مع المكان, فهو لا يصف لنا القطار(نفق الموت) بتفصيلاته العامة بل اقتصر في وصفه على ما يدل على علاقتهم المشحونة بالأزمات ومصارعة الموت, فكان أن اتخذوا من ثقب في جدار القطار

وسيلة للتمرد على المكان المطبق عليهم, فهو –المكان/ القطار– أصل عندهم صراعا بين وضعهم الحالي وما ينشدون من حرية.

"الذي فعلناه هو تنظيم التناوب على ثقب في جداره الصلب. نتلقف الهواء النقي, فيما نغرق في سائل رطب سح من أجسادنا"[23], يفصح هذا المقطع عن القوى الواعية التي تأبى الاستسلام لمصير فرض عليهم, فكان عليهم أن يكونوا بين قوتين متناقضتين: قوى ضاغطة والمتمثلة بالسلطة آنذاك وقوى محبطة متمثلة بالقطار المطبق عليهم, وهم بين هاتين القوتين يعيشون صراع إثبات الذات وعدم الاستسلام, فكان الثقب الصغير هو نافذة الحرية منه يتنفسون الصبر وهو ما أعطاهم فعل الحضور معلنين عن وجودهم, فهذه العلبة الفولاذية المحكمة الإغلاق تستنهض فيهم الحياة ومواصلة النضال في أشد الظروف قساوة, فما كان منهم إلَّا الإجابة.

وكما كان الثقب الصغير منقذ السجناء من الموت المحتوم كان النفق في سجن الحلة هو المنقذ ووسيلة للتخلص من عذاب السجن, فكان فضاء واصل[*] بين حياتين حياة الحرية وحياة السجن

" –لابد من الفرار, سننتهي قبل أن يتركوننا نذهب إلى أهلنا بسلام.

–إننا أسرى وما أن تنتهي الحرب فسوف يتغير الأمر

–أشك في أنها تنتهي, وأشك في أننا نبقى أحياء.

–وما الحل..؟

–الحل بأيدينا.. نهرب.

–نهرب..؟ وكيف..؟ وهم يحيطون بنا كالسوار.

–لا اعتقد ان ثمة طريقاً لذلك

–بل انه موجود, هو النفق, نحفر نفقا, وبمرور الزمن سوف يؤدي بنا إلى مكان بعيد" [24]

إن رؤية الأسلاك الشائكة المحيطة بالسجن والجنود وأسلحتهم أثارت في نفوس السجناء الدافع للتخلص من هذا الواقع المزري والتعذيب المستمر, فكان لا بدَّ من سبيل للخروج, وقد مهَّد الراوي بوصف (المكان/ السجن) ليدخل تدريجيا إلى وصف الحالة النفسية للشخوص من خلال علاقتهم بالمكان المتجه نحو النفور وفقدان التوازن النفسي, فبدأت

تطل برأس الشخصية فكرة النفق والهروب من فضاء السجن طلباً "لإعادة هذا التوازن, هنا يبدأ ضغط الفضاء الخارجي, وتتوسع مأساته ويصبح بقدر ما هو مرغوب مدان, وبقدر ما هو واسع, ضيق فالكائن البشري أن أخل نظام حياته ولم يصبح موزعا بين الضوء والظلمة, أصبح كائنا بنفس مضطربة, وتكوين يشوبه خلل في توزيع نسبه الحياتية"[25], فكان السجن سببا في صراع الشخصية الداخلي وتوقه إلى الحرية المكان الآمن, فعزموا على إنجاز خطتهم على الرغم مما سوف يقاسونه من الصعاب.

"لقد حفروه بصبر. كنت أراقبهم عارفا بخطورة فعلهم. كانوا حريصين على الكتمان والتستر على مشروعهم الخطير, وكنت اعرف ما يتوصلون إليه واحسدهم على صبرهم وجلدهم وقدرتهم على كم أفواههم عن الاخرين, والاحتفاظ بالسر"[26]

عمد الراوي إلى الغوص في أعماق الشخصيات المشاركة في عملية الحفر, والكشف عن مكنوناتها الداخلية وما يحرك فيها المكان من صراع اجتماعي, فهم آثروا العزلة عن مجتمع السجن وإنعزالهم يشي بصراعاتهم الداخلية, إن الزمن المستغرق في حفر النفق كان زمناً مشحوناً بالقلق والتوتر النفسي, ومرد ذلك إلى شدة الرقابة عليهم وحالة عدم الاستقرار التي ترافق الشخصيات عند تواجدها في هذا المكان الطارد, فكان النفق هو المنقذ لهم إذن فحسب المنظور النفسي هو مكان أليف.

فوجود الناصري في بلاد الغربة ورؤيته لنفق الحدادة الذي يعبره يوميا, دفع ذاكرته إلى إستعادة معظم الأنفاق التي مر بها, مبتدئاً من نفق رحم الأم, ثم نفق سجن الحلة ونفق قطار الموت الشهير في تاريخ العراق السياسي "هذه الأمكنة الطاردة هي من وضع الشخصية موضع القلق, لأنها ارتبطت عبر ذاكرته في حياة ووجود غير مستقر. فتوالي المنافي عليه, أعطى تلك المنافي رمزية استحدثها عن ضيق الأفق ووحشته, فعبر بالأنفاق. وأي أنفاق! أنفاق تضيق باستمرار فتجعله مهزوما وفاقد الأمل"[27]

البيت:

وعلى ضيق الحيز الذي يشغله البيت في رواية (مستعمرة المياه), إلَّا أنه يحرك صراعا (داخلياً واجتماعياً) عند بطلي الراوية, فهو مكان الإحساس الفردي بالوجود, بحكم أن الخروج منه يستدعي الرجوع إليه على أن الإحساسات تختلف باختلاف الظروف التي

تعيشها الشخصية داخل البيت, وله سلطة على الشخصيات وسلطته هذه متولدة من كونه المرتكز الأساس الذي تبنى عليه فيما بعد التجارب اللاحقة فلا فرار من تأثيره, وهو الذي تندمج فيه الأفكار والذكريات, ويمنح الماضي والحاضر والمستقبل وهذه المزية لا يمكن أن تتوافر بأي حال من الأحوال لغيره من الأماكن[28]

ومن الخطأ النظر إليه مجردا من الدلالات النفسية المرتبطة به وإحكام طوق الوصف حوله؛"لأن هذه الرؤية ستجهز على الدلالة الكامنة فيه, وتفرغه من كل محتوى, وعلى الرغم من أهمية الوصف لفضاء البيت, ينبغي تجاوزه للتعبير عن الإرادة الإنسانية التي تشغله وتعطيه امتلاءه الدلالي"[29] . يرد ذكر البيت عن طريق استرجاع (مردان) لحادثة عودته من (حفيظ) وإنكار والدته وقومه له بعد أن عاد مجللا بالشيب والتجاعيد التي لملمت نضارة وجهه "مولياً وجهي صوب البيت, وحين سمعت أمي وهي تنهر الدجاج وتبعده, لاح رأسي من السياج الطيني الواطئ. جفلت ما ان رأتني.. تقدمت نحوي من باب البيت وأنا قلق إزاء ذلك. ما الذي دفعها إلى مثل هذا التصرف..؟"[30]

في هذا المشهد الاستذكاري يتجنب مردان الولوج إلى حيثيات البيت وتذكر أثاثه أو أوصافه الداخلية؛ فالابتسار المتعمد والتشحيب الإرادي لصورة البيت من قبل مردان يعكس مدى تأزمه النفسي وارتباط البيت بذكريات تأبى الشخصية إجترارها لارتباطها بأزمات شديدة الحساسية لعل أبرزها إرتباطه (أي البيت) بخلخلة الهوية المؤطرة للشخصية نفسها, فأصبح ذكر البيت "تجسيداً واضحاً لكل معاناة الشخصية وآمالها المحبطة"[31]. إن نكران قومه له وهو كبيرهم وسيدهم, دفعه إلى أقصى حالات اليأس, فاقترن ذكر البيت بالهموم وقسوته على النفس فكان دائما ما يردد عند ذكره البيت "فأي لغة أمرّ من النكران"[32], فهو يعاني من تهميشٍ أمام قسوة المكان وفقدانه "القيم الأصيلة التي يشكل فقدانها عاملا مهما وحاسما من عوامل ارتباك الذات وفقدانها لهويتها وبالتالي نفورها من المكان الذي سلبها كينونتها ووجودها"[33], ويحتدم الصراع النفسي عند مردان؛ لتركه مكانه الأصل فيوصي ولده سامحا بضرورة العودة إليه لأسباب ذاتيه واجتماعية تتشابك فيها الصراعات, وأهم هذه الصراعات هي من أجل إثبات الهوية الاجتماعية, ولتكون لسامح أحقية الإبحار عليه الرجوع إلى القرية وإلى بيت جدته العلوية ليسلمهم البرهان أنه من آل المكاصيص "أنا ملتحق بالسفينة.. ملتحق بقومي, قادم منهم, عائد إليهم"[34]

وتبدأ رحلة سامح نحو الشويعرية حيث موطن الأجداد, وهي رحلة محملة بالأمل, وفي هذه الرحلة سيصاحبها تغير كبير في شخصية سامح, فـ" الانتقال من مكان إلى مكان يصاحبه تحول في الشخصية" [35], إذ سيكون هو كبير قومه وشيخهم وهو من سيبحر إلى حفيظ. ويرتبط هذا الأمل عند سامح بوصفه البيت إذ انعكس الإدراك النفسي على وصف المضيف.

"منذ أن دخل سامح بيت المضيف, وهو يتابع بدقة ما يحتويه هذا المكان الذي انفتح أمامه. إذ لم يحسب لنفسه إلا أن يلج مكاناً ضيّقاً كالبيوت التي دخلها, والغرف التي كانت مستقرا له. غير أنه أنبهر من سعة المكان وعلو فضائه, وتقوس سقفه المنتظم. وتلك الأضلاع التي تباعدت كما لو أنه ينظر إلى تراصف أضلاعه, ويسيح في فضائه, جسد مشع. كان الضوء يدخل من جميع الجدران التي اتكأ على أحدها, والاخرى تحف به وتقابله, ثم الاشكال الهندسية التي خلفها تقاطع القصب مع بعضه, شكل تأطرات للضوء الذي ينسكب ليسفر عما في خارج البيت الرابض على مرتفع كسفينة راسية على جروف مستعمرة المياه"[36]

نلحظ عن طريق المقطع السابق تدرجا في الحديث عن الصراع النفسي, فعن طريق الوصف الخارجي للمضيف وبيان أعمدته ومن ثَمَّ الانتقال إلى الوصف الداخلي ويصف الأعمدة بـ(الأضلاع التي تباعدت) نرى إشارة إلى رحلة مردان نحو المدينة بعد عودته من إيشان حفيظ. فتباعد الأضلاع هو تباعد أبناء القبيلة الواحدة. ثم بعودته يتم التحام هذه الأضلاع وتراصفها فيكون (الضوء/ تجدد الأمل) الذي يجمع أعمدة المضيف/ أبناء القبيلة مع بعضها. ويتدرج هذا الصراع الذي يمسك بخيوطه (بيت المضيف) ويحركه, ويبلغ ذروته عند لحظة الالتقاء, فعندما يوظف الروائي مكانا ما ويجعل منه الحاوي للأحداث فإنه بذلك "يمنح المكان سلطة حيث نجد الشخصية نفسها واقعة تحت سيطرته بحيث يعدّ أي خروج عن هيمنة المكان خللا فنيا في بناء الشخصية"[37], وتترجم هذه السلطة بتشكيل ثقافة جديدة مغايرة لسابقتها ولا سيما إذ ما علمنا أن للمكان دورا قارا في تأصيل هذه الثقافة وأن دوره هذا يفوق ما للزمن والتأريخ من دور. فالإنتماء إلى المكان هو إنتماء إلى الشجر والماء والتراب والنهر وإلى عشيرة الهوية العاملة في الفضاء نفسه. فهو يحمل كروموسومات وراثية ليفرضها على قاطنيه تفرز من خلال نتاج أبنائه خصوصية سلوكية وإبداعية[38] " قلعة قصبية

ببوابة تعلو.. وتعلو, يتصدرها رأسان لأيلين ضامري الوجنتين, يُحدقان في البعيد بانطفاء, ملتفة قرونهما على أشكال وانحناءات. بينما تتوسط المضيف سور وآيات مزججة, وأكف تتوسطها عيون واسعة, مكتوب عليها الحسود لا يسود. أحس كما لو انه يدخل مزارا وليس بيتا, حاول الامساك بمشاعره بمثل ما كان وهو يدخل إلى الأماكن المقدسة, حيث ازداد وجيف قلبه, فاقدا السيطرة على مشاعره" [39].

إن للمضيف شخصيته وهويته الاجتماعية, فهو "مكان له خصوصية كبيرة وأهمية بارزة في الريف, يؤمّه الشيوخ والعامة وله مكانة اجتماعية متميزة في جميع المناسبات, يقصدونه لحل النزاعات والخلافات التي تنشب بين الناس والنظر في شؤونهم الاجتماعية وإدارة شؤون العشيرة"[40], فينظر إليه سامح بقداسة فهو بالنسبة إليه مزار ديني ولا سيما ما شاهده من آيات مزججة وغيرها من دلالات المزارات الدينية فتضطرب نفسه ويزداد خوفه؛ لكونه– المضيف– به سيحدد الهوية الاجتماعية لسامح "اقترب من أكثر يا ولدي, والله أنت منّي صلب المكاصيص كما قلت"[41] .

المغتسل:

وما بين فضاء الحياة وفضاء الموت هناك منطقة رمادية هي المسافة الفاصلة بين الحياة والموت ألا وهي (مغتسل الموتى) في رواية (انزياح الحجاب ما بعد الغياب), إذ كان للمكان في هذه المتوالية دور في تحريك الصراع, فهي أمكنة حرجة ومثيرة, متمثلة بـ(المغتسلات والمدافن) وما يحيطها من طقوس وفعاليات, فتتجلى الدلالة الفكرية للمغتسل بصلته المباشرة بالموت, غير أن الروائي يقلب المعادلة قليلا, ويجعل منه (تكيه) في الليالي, يؤدي فيها (سعيد الناصري) دروسه مما أغاض السلطان فأُعتقل وعُذب ثم فارق الحياة .. "لم يطب لهم مجلس غير مجلسه, فقد كانت الليالي خير ما يريح ابدانهم من بعد راحة أرواحهم, ففي النهار كد وتعب وحزن على الراحلين. فما ألفوا الموت قط على الرغم من مجاورته في كل لحظة تمر عليهم. فقد تصلبت أعصابهم وكبتوا مشاعرهم, وهم بين مقلب للأجساد ومن خالع للملابس. فللموت عندهم هيبة ما بعدها هيبة؛ وله سطوة اليقظة التي عودهم عليها سعيد الناصري عبر جلساته الليلية"[42]

يكشف لنا الراوي عن نشاط ليلي يمارسونه بعد أن تختفي الأعين, ولهذه الليالي تعالقها البيئي الوثيق؛ لكونهم لا يطيب لهم مجلس إلَّا في هذا المكان, فعلى الرغم من مظاهر الموت المشاهدة كل يوم, وسوداوية المكان ظاهريا وارتباطه بالموت إلَّا أنه في الخفاء مدرسة تحاول تحطيم الثقافة القشرية للمجتمع, وقلع العادات والأفكار السائدة المرتبطة بالطبقات المسيطرة بغية الكشف عن مسار آخر يتيح لهم إعادة تنظيمها في نسق جديد يلغي المنظور الاستهلاكي ويحل محله منظور الاستبصار أي المستوى الإبداعي التغييري[43], فكان (مغتسل المخيم) وسيلة ينجز من خلالها الناصري مسعاه التجديدي في زمن الطموحات المقموعة.

تمتاز سلسلة اللقاءات هذه بطقوس يومية تمارس بعد إنتهاء العمل نهارا فيسرد لنا الراوي, بداية الجلسة "أن رائحة الشاي قد ملأت أنوفهم, فأثير شيء في داخلهم. وبينهم وبين احتسائه دقائق معدودات, فالناصري لا يغيب عنهم طويلا في خلوته, فهم يهيّون وقوفا لمقدمه, وقد طالت السنون هكذا معه.. رجل يتوسطهم مثل بناء يزيد من علو الحائط بتلاحق الزمن, طابوقة تلو الأخرى, وصف فوق صف"

هذه الجلسات ذات الطابع الشفوي تهدف إلى إعادة إنتاج المجتمع والأفكار السياسية, فمعلمهم (الناصري) رجل خبر الحياة وعرف مكنونات السلطة وعن ماذا تسفر سياستها, لذا عمد إلى إعداد جيل يرفض الظلم مهما كان الثمن, وهذه الجلسات لم تكن علمية جافة بل كان يتوسطهم ويناقشهم برحابة صدر, فهو وقبل أن يبدأ بتشريح العلائق الاجتماعية يبدأ بسؤالهم عن أحوالهم وهم يبادلونه الاحترام والتقدير فيقفون إجلالا له. ثم بعد ذلك يتخذ" مجلسه بينهم, فيما كان أحدهم يسارع لإحضار أواني الشاي, تبدأ الملاعق بالدوران, كأنها بتناغمها تشير إلى جرس البداية, وما تشرع في الحكاية لهذه الليلة, فالرؤوس كثرت داخلها الأسئلة وتزاحمت وهو عارف بذلك. وهم يدكون استجابته لهم ومعرفته لشغفهم لسد باب السؤال" في هذا النص يمارس الراوي إجراء إسقاطيا لملامح المكان وموجوداته ليوصل لنا مدى التماس والانسجام بين الناصري وطلاب تكيته فكلاهما يستمدان من المكان الدافع النفسي, ففي هذا المكان(المغتسل) المتحول بين الحياة والموت يتمظهر لنا صراع مزدوج, يتمثل في الصراع مع السلطة الحاكمة والصراع مع سلطة النفس, وكان للمغتسل الفضل في

استمرار الصراع, فبعد موت الناصري الأول حلَّ محله الناصري الثاني, وبعد موت الثاني, حلَّ الثالث فلا يعرف المكان إلَّا بهم.

النتائج

- للمكان اهمية في العمل السردي فهو لا يعيش منعزلا عن باقي العناصر السردية بل يتضافر معها ويدخل في علاقات متعددة مع المكونات الاخرى كالشخصية والحدث والرؤية السردية. وعدم النظر اليه ضمن هذه الصلات يجعل من العسير فهم الدور الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد.
- المكان ليس طارئا في حياة الشخصية بل هو متغلغل فيها ومن الصعوبة الانسلاخ عنه. فهو ليس حيزا جغرافيا فحسب بل حيز انساني مليء بالإسقاطات النفسية, فعلاقة الشخصية بالمكان تبدا من لحظة الميلاد وتستمر حتى الموت.
- المكان في روايات جاسم عاصي (المتخيل و الواقعي) له سلطة على الشخصية فهو لا يستطيع الفكاك من سلطة المكان كما في النفق الذي حالما يدخله البطل يستذكر الانفاق المريرة التي دخلها مضطرا ابتداء من نفق الأم (الرحم) وانتهاء بنفق القبر.
- قد يرتبط المكان بحادثة متعلقة بسلب الهوية الاجتماعية فيعمد إلى تشحيب صورة المكان ونفورها منه. وقد يرتبط المكان ظاهريا بدلالة الموت إلا انه يبث الحياة والنضال ضد الظلم كما في مغتسل الناصري, إذ عمد الروائي إلى قلب المعادلة.
- إن المكان يكون أليفا إذا وافق الحالة النفسية والشعورية للشخصية, حتى وإن كان هذا المكان محدوداً كما بينا في رواية المكعبات الحجرية, أنّ نفق سجن الحلة كان هو المنقذ وهو الموصل إلى الحرية. وقد يكون المكان معاديا وإن كان مكاناً رحباً.

الهوامش

[1] – بنية الشكل الروائي: 26

[2] – غسان كنافي جماليات السرد في الخطاب الروائي, الدكتورة صبحية عودة زعرب, دار مجدلاوي, عمان , الأردن, ط1 2006م: 95

[3] – المكان العراقي جدل التجربة والكتابة, لؤي حمزة عباس, 13–14

[4] – الزمان والمكان في الشعر الجاهلي, باديس يوسف فوغالي, عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع, عمان الأردن , ط1, 2008م: 181

[5] – ينظر: تشكلات بناء المدينة في الرواية العراقية 1980–2003م : 41

[6] – الرواية والمكان, ياسين النصير, دار الشؤون الثقافية العامة, سلسلة الموسوعة الصغيرة, العدد 57, بغداد 1980م : 97–98

[7] – ينظر: جدلية المكان والزمان والانسان في الرواية الخليجية , عبد الحميد المحادين, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت ,ط1, 2001م : 21–22

[8] – الهوية وتحولات المكان في رواية مثل زهرة مجففة لمحمود يعقوب, أ. د. ضياء غني العبودي, الباحث حوراء شهيد, المؤتمر العلمي الدولي الاول, 29–30 نيسان 2017, العدد الاول, كلية الكوت الجامعة: 141

[9] – ينظر: الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا, الدكتور ابراهيم جنداري, دار الشؤون الثقافية العامة, ط1, بغداد , 2001م: 20

[10] – بناء الرواية, دراسة في الرواية المصرية , عبد الفتاح محمد عثمان, مكتبة الشباب, مطبعة القدم, 1982م ط1: 80

[11] – ينظر: كيف تكتب سيناريو, صلاح ابو سيف, الموسوعة الصغيرة, العدد (98) دار الجاحظ, 1981م : 75–76

[12] – تحولات الكتابة, حوارات في سيرة الكتابة والثقافة سرديات جاسم عاصي أنموذجا: 137

[13] – المكعبات الحجرية: 141(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[14] – المكعبات الحجرية : 156(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[15] – المكعبات الحجرية: 149(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[16] – تحولات الكتابة (حوارات في سيرة الكتابة والثقافة سرديات جاسم عاصي أنموذجا) :138

[17] – المكعبات الحجرية: 151(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[18] – ينظر الشخصية المستلبة في الرواية العراقية المعاصرة من 2004–2014,رائد جميل عكلو, رسالة ماجستير, جامعة ذي قار, 2016م : 53

[19] – المكعبات الحجرية : 160(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[20] – اشكال الزمان والمكان في الرواية, ميخائيل باختين, ترجمة: يوسف حلاق, منشورات وزارة الثقافة , سوريا, 1980م, ط1: 108

[21] – المكعبات الحجرية : 159(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[22] – المكعبات الحجرية : 160(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[23] – المكعبات الحجرية : 160(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

* – الفضاء الواصل او فضاء العتبة : العتبة تسمية اطلقها (باختين) في دراسته لأعمال (دوستويفسكي) حيث لاحظ ان الكاتب استخدم في رواياته فضاءا رمزيا خاصا , يتمثل في الممرات والمداخل والابواب والحانات والاكواخ كما ان الزمن الذي يؤطر فضاء العتبة زمن متأزم فهو زمن مشحون بالتوتر والقلق والاضطراب وطرح اسئلة مصيرية. ينظر: الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات, د. جميل حمداوي, الالوكة, https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038/

[24] – المكعبات الحجرية : 189(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[25] – الرواية والمكان" 84

[26] – المكعبات الحجرية: 153(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[27] – تحولات الكتابة (حوارات في سيرة الكتابة والثقافة سرديات جاسم عاصي أنموذجا) : 138

[28] – ينظر: تشكلات بناء المدينة: 45

[29] – المكان في رواية العائلة العراقية (البيت نموذجا), أ. د. حمزة فاضل يوسف, م. ضرغام عدنان صالح, مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية. العدد(3) سنة(2019م): 166

[30] – مستعمرة المياه: 39(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[31] – الشخصية الريفية في رواية الارض في الادب العربي الحديث, هاجر محمود علي, (رسالة ماجستير), جامعة بغداد –كلية التربية للبنات, 2003م: 223

[32] – مستعمرة المياه: 53(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[33] – دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر , قادة عقاق: 294

[34] – مستعمرة المياه: 65(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[35] – بناء الرواية , سيزا قاسم, الهيأة المصرية للكتاب, د.ط, 1984م: 77

[36] – مستعمرة المياه: 77(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[37] – تحولات الشخصية في روايات عبد الرحمن منيف, محمد عبد الحسين الخزاعي, رسالة ماجستير, كلية التربية ابن رشد–جامعة بغداد, 1998م: 161

[38] – ينظر: شحنات المكان, ياسين النصير, دار الشؤون الثقافية العامة, ط1, 2011م: 87

[39] – مستعمرة المياه: 79(ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[40] – الفضاء الروائي في روايات محسن جاسم الموسوي, رشا قاسم فياض, رسالة ماجستير, كلية التربية للعلوم الانسانية– جامعة ذي قار, 2014م: 78

[41] – مستعمرة المياه: 89 (ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[42] – انزياح الحجاب ما بعد الغياب: 429 (ضمن مجموعة في انتظار الضفاف البعيدة)

[43] – ينظر: انتاج المكان بين الرؤيا والبنية والدلالة, د. محمد الأسدي, من اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية ب, ط1, 2013م: 84

Refrences

- اشكال الزمان والمكان في الرواية, ميخائيل باختين, ترجمة: يوسف حلاق, منشورات وزارة الثقافة, سوريا,ط1 م1980م
- انتاج المكان بين الرؤيا والبنية والدلالة, د. محمد الأسدي, من اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية ب, ط, 2013م
- بناء الرواية, سيزا قاسم, الهيأة المصرية للكتاب, د.ط, 1984م
- بناء الرواية, دراسة في الرواية المصرية, عبد الفتاح محمد عثمان, مكتبة الشباب, مطبعة القدم, 1982م ط1
- بنية الشكل الروائي (الفضاء– الزمن – الشخصية) حسن بحراوي, المركز الثقافي العربي, المغرب, ط2, 2019
- تحولات الشخصية في روايات عبد الرحمن منيف, محمد عبد الحسين الخزاعي, رسالة ماجستير, كلية التربية ابن رشد–جامعة بغداد, 1998م
- تحولات الكتابة (حوارات في سيرة الكتابة والثقافة سرديات جاسم عاصي أنموذجا), تحرير وحوار: أياد حياوي جواد الحفّار, دار تموز ديموزي,ط1, 2018م
- تشكلات بناء المدينة في الرواية العراقية 1980–2003م
- جدلية المكان والزمان والانسان في الرواية الخليجية , عبد الحميد المحادين, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت ,ط1, 2001م
- دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر , قادة عقاق
- الرواية والمكان, ياسين النصير, دار الشؤون الثقافية العامة, سلسلة الموسوعة الصغيرة, العدد 57, بغداد 1980م
- الزمان والمكان في الشعر الجاهلي, باديس يوسف فوغالي, عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع, عمان الأردن , ط1, 2008م
- شحنات المكان, ياسين النصير, دار الشؤون الثقافية العامة, ط1, 2011م:
- الشخصية الريفية في رواية الارض في الادب العربي الحديث, هاجر محمود علي, (رسالة ماجستير), جامعة بغداد –كلية التربية للبنات, 2003م

- الشخصية المستلبة في الرواية العراقية المعاصرة من 2004–2014,رائد جميل عكلو, رسالة ماجستير, جامعة ذي قار, 2016م
- غسان كنافي جماليات السرد في الخطاب الروائي, الدكتورة صبحية عودة زعرب, دار مجدلاوي, عمان , الأردن, ط1 2006م
- الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا, الدكتور ابراهيم جنداري, دار الشؤون الثقافية العامة, ط1, بغداد , 2001م
- الفضاء الروائي في روايات محسن جاسم الموسوي, رشا قاسم فياض, رسالة ماجستير, كلية التربية للعلوم الانسانية– جامعة ذي قار, 2014م
- كيف تكتب سيناريو, صلاح ابو سيف, الموسوعة الصغيرة, العدد (98) دار الجاحظ, 1981م
- المكان العراقي جدل التجربة والكتابة, لؤي حمزة عباس,
- المكان في رواية العائلة العراقية (البيت نموذجا), أ. د. حمزة فاضل يوسف, م. ضرغام عدنان صالح, مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية. العدد(3) سنة(2019م)
- الهوية وتحولات المكان في رواية مثل زهرة مجففة لمحمود يعقوب, أ. د. ضياء غني العبودي, الباحث حوراء شهيد, المؤتمر العلمي الدولي الاول, 29–30 نيسان 2017, العدد الاول, كلية الكوت الجامعة
- الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات, د. جميل حمداوي, الالوكة,
- https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038/
- في انتظار الضفاف البعيدة .روايات, جاسم عاصي , دار تموز للطباعة والنشر, دمشق, ط1, 2011م